زيد الخيل الطائي

محمد اليعقوبي

زيد الخيل اسم مشهور لفارس من فرسان العرب ، وسيد من ساداتهم . أكرمه الله تعالى بالاسلام ، وخلع عليه حلة الهدى وتوّجه بالايمان ، ذلك هو زيد الخيل ابن مهلهل الطائي المكنى بأبي مكنف الذي قال له عمر بن الخطاب : « لله درّك يا أبا مكنف فلو لم يكن لطيىء غيرك وغير عدي بن حاتم لقهرت بكما العرب » ٠

قدم على النبي ﷺ في السنة التاسعة للهجرة (عام الوفود) مع وفد بني طيىء وفي الوفد : وَزَرُ بن سدوس النبهاني، وقبيصة بن الأسود بن عامر بن جوين الجرمي ، ومالك بن جبير المغني ، وقعين بن خليل الطريفي ، في نفر آخرين ، وكان زيد سيد القوم ، ولما سأله الرسول ﷺ عن اسمه قال : زيد الخيل ، فقال له : « بل أنت زيد الخير » ٠

وتلك هي طريقة كان الرسول عليه الصلاة والسلام يتبعها مع عدد ممن يعلنون اسلامهم ٠ ونرى أن لذلك أسباباً ثلاثة : أولها أن بعض تلك الأسماء كان يحمل معاني تتنافى مع مبادىء الاسلام كعبد العزى وعبد شمس ٠ وثانيها دلالة بعض الأسماء على معاني غير مستحسنة، ولا تقع من النفس موقعاً حسناً ، بل قد تترك في تصرفات الانسان تجاه مسمياتها أثراً يجعله ينفر عنها ويبتعد ، وهذا هو ما يعبر عنه بالشؤم ٠ فلقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يحب الفأل الحسن ؛ مر بأرض يقال لها عفرة فسماها خضرة. وجاءه ذات مرة حزن بن أبي وهب جد

التابعي الجليل سعيد بن المسيِّب ، فقال الرسول له : « أنت سهل » ، قال : لا أعدل عن اسم سماني به أبواي ، وقال في رواية : السهل يوطأ ويُمتهن ـ لكن سعيد بن المسيب قال : والله ما زالت فينا تلك الحزونة الى الآن ٠

وقد لا يكون لأي من هذين السببين علاقة بتغيير اسم الصحابي أو المكان ، وانما يحدث ذلك لسبب آخر هو قطع صلة هذا الرجل الذي جاء مسلماً بحياته الأولى ونسيانه لها ، ليبدأ حياة جديدة مؤمناً بالله تعالى متبعاً لرسوله ٠ وهذا يقتضي منه قطع كل العلائق التي قد تذكره بحياة الوثنية والجاهلية وما ارتبط بها من أسباب ٠

وصاحبنا من هذا النوع ، فقد أراد الرسول عليه الصلاة والسلام أن ينسيه ما اعتاد عليه في الجاهلية من السلب والاغارة ، وركوب الخيل لمثل ذلك ، حتى ارتبط اسمه باسم الخيل ، التي لم يكن يركبها الا للاغارة على قومه وبني عمومته من أحياء العرب ، كما قال القطامي :

أغرن من الضِّباب على حلول … وضبة انه من حان حانا

وأحيانا على بكر أخينا … اذا ما لم نجد الا أخانا

أراد الرسول الكريم بحكمته أن ينتزع خطأ تلك المفاهيم من صميم نفسه ، ليحدث انقلاباً كلياً يصرف فيه تفكير هذا المسلم الجديد وطاقاته ووجهته نحو ما ينبغي له أن يتجه اليه ، فكان أن قال له : « بل أنت زيد الخير » ٠

ولقد كان هذا الرجل يتحلى بمزايا شخصية عظيمة ، فقد كان الرسول العظيم يسمع الثناء عليه ولا يعرفه ، فلما جاءه مسلماً خاطبه بقوله : «يا زيد ما وصف لي رجل قط فرأيته الا كان دون ما وصف به الا أنت فانك فوق ما قيل فيك » ٠ وتلك من النبي ﷺ شهادة لا تعدل بها شهادة ٠ ويسأل زيد الرسول سؤال المتلهف : يا رسول الله ! أسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد ، فيقول الرسول عليه الصلاة والسلام له : كيف أصبحت ؟ قال زيد : أصبحت أحب الخير وأهله ومن يعمل به ، فان عملت به أُثبت بثوابه ، وان فاتني منه شيء حزنت عليه ٠ فقال الرسول ﷺ له : « هذه علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن

لا يريد ، ولو أرادك بالأخرى لهيأك لهـاشـم لا يبـالي الله في أي واد هلكت » ٠
وبقيت مكانـة زيد بعـد أن أسلم عنـدالرسول كما هي ، بل ازداد النبي له حباً وتكريماً ، فقد روي أن علياً رضي الله عنه بعث الى النبـي بذُهيبـة في أديم مقروظ ، تُحَصَّلُ من تربتها ، فقسمها بين أربعة : الأقرع بن حابس ، وعيينـة ابن بدر ، وزيد الخيل ، وعلقمة بن علاثة ٠

وكان زيد طويلا جسيماً ، حسـن الهيئة ، جميل الصورة ، بهيّ الطلعـة ؛ ولذلك كان يتقنع بمكـة خشية افتتـان النساء به ، وكان من فرط طوله اذا ركب الفرس العظيمة تخط ابهامـاه في الأرض(٢) ٠ ومع هذا كله فقد كان خطيباً مفوّهاً وشاعراً مجيداً مقلا ، وقد ألف المفجّـع البصري كتاباً شرح فيه غريب شعر زيد الخيل ، كما قام بعض المحـدثين بجمـع شعره ، ونشره في مجلة المورد(٣) ٠ وكان زيد أيضاً موصوفاً بالكرم، كما كان فارساً من فرسان العـرب المعدودين وكانت له جولات وبطولات ، وقد استطاع في بعض المعارك أن يأسر فارس بني عامر : عامر ابن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب ٠ وجز ناصيته وأطلقه ، مع أن عامراً كان فارس قومه غير مدافع بعـد عمه ملاعب الأسنة ، وقد كانت بين زيد وابن الطفيل مهاجاة وردود ٠ ولما أسر زيدٌ عامر بن الطفيل وجزّ ناصيته وأطلقه رفض قوم عامر أن يسلّموا الرئاسة له ، وسلموها لمنافسه علقمة بن علاثة ٠ ولفروسية زيد وشجاعته النادرتين ارتبطت باسمه بعض القصـص الخيـاليـة في الشـجاعـة والبطولة(٤) ٠

ولا عجب في ذلك فقد ارتبط اسـم زيد باسم الخيل حتى قيل له زيد الخيـل لشهرته بالفروسية ، فقد كان يشن الغارات فيقتل ويأسر ، ويسبي ويغنم ، ولا يعرف الهزيمة أو لا تعرف الهزيمة اليه سبيلا، ولقد كان بسيادته يأخذ المِرْبَاع ، وهو ربع الغنيمة يأخذه سيد القوم خالصة له. فقد كاد قومـه أن ينهزمـوا في احـدى المعارك ، فخاطبهم قائلا : أأحمل ولي المرباع ؟ قالوا : نعم ، فحمل على أعدائهـم وهزمهم وأخذ المرباع ٠ فليس ببعيد أن تعلو أصداء انتصاراته وتتردد على كل لسان ، جاعلة منـه الفـارس المعـلَم ، والبطل المغوار ، والكمي الباسل ، كمـا يقول مفتخراً بنفسه في احدى قصائده :

أنا الفارس الحامي الحقيقةَ والذي ... لـه المكرمـات واللُّهـى والمـآثر(٥)

وقومي رؤوس الناس والرأس قائـد ... اذا الحرب شَبَّتهـا الأكفُّ المساعـر

فلست اذا ما المـوت حُـوذرَ وِرده ... وأُترع حوضـاه وحُجِّجَ ناظـر(٦)

بوقَّافـة يخشـى الحتـوف تهيبـاً ... يباعدني عنها من القُبِّ ضـامر(٧)

ولكنني أغشى الحتـوف بصَعـدتي ... مجـاهـرة ان الكـريـم يجـاهر(٨)

وأُروي سـناني من دمـاء عـزيزة ... عـلى أهلهـا اذ لا ترجَّى الأياصـر

وكان زيد أيضاً يملك عدداً كبيراً من الخيول الأصيلة ، وصلتنا أسماء بعضها ، فمنها : الهطال ، والكامل ، ودؤول ، ولاحق ، والورد ، والكميت • وقد يكون ذلك من أسباب تسميته زيد الخيل . واذا شئنا أن نتصور ما يناله من الشهرة من يملك مثل هذه الأفراس الجياد فلنتصور أيضاً بجانب ذلك أن الخيل كانت عزيزة عند العرب ، وأنه لا يقتني الفرس الا من يقاتل عليها ، وأن امتلاك العربي لفرس واحد كان دليلاً على غناه وسؤدده وشجاعته ، فكيف بمن يملك مثل هذا العدد من الخيل التي تضرب بها الأمثال !

ولقد كانت لزيد عناية خاصة بالخيل ، وحب شديد لها ، وتعلق بها ، وولع بتربيتها والاعتناء بها ، ففي احدى غاراته ظلع ــ أي عرج ــ فرس له جواد، فخلّفه في حي من أحياء العرب ، فأغار بنو أسد على ذلك الحي وأخذوا الفرس، ويسمع زيد أنهم يعاملون الفرس معاملة سيئة ، فيحز الألم في صدره ، ويعتصر الحزن قلبه ــ وهو الذي اعتاد أن يكرم الخيل ويعتني بها ، فيقول ورنة الأسى والحزن لما يلقاه الفرس تشيع في كل كلمة مما قال :

يا بنـي الصيـداء ردوا فـرسـي ... انمـا يفعـل هـذا بالـذليـل

عـوِّدوا مهـري كمـا عودتـه ... دلـج الليـل وايطـاء القتيـل(٩)

لا تـذيلـوه فـانـي لـم أكـن ... يا بني الصيـدا لمهـري بالمذيـل(١٠)

أحمـل الـرزق عـلى منسجـه ... فيظـل الصيف نشـوانا يميـل(١١)

وها هو يرتفع بالخيل ويكرمها فيعامل الفرس معاملة ابن من أبنائه ، يقول في فرسه « الهطال » :

أقرب مـربط الهطّـال انـي ... أرى حرباً تَلَقَّحُ عَنْ حيـال
أسـويه بمكنـف اذ شـتونـا ... وأوثـره عـلى جُـلِّ العيـال

ويقول في فرسه « دؤول » :

فاقسـم لا يفـارقنـي دؤولٌ ... أجول بـه اذا كثـر الضّـراب

ولما وفد زيد الى المدينة أقام بها فترة من الزمن بعـد أن تمكن الايمـان من شغاف فؤاده ، وخالط سويداء قلبه ، وهنا نذكر له بفخر موقفه حين أراد ألاّ يفوته شرف الجهاد في سبيل الله لاعلاء كلمة الله ونشر الاسلام ، فقال للنبي ﷺ : يا رسول الله أعطني ثلاثمائة فارس أغير بهم على قصور الروم . وكم من الفرق بين هـذا الموقف وموقف عامر بن الطفيل ، الذي جاء المدينة واشترط على النبي لكي يسلم أن يسلّمه أعنة الخيل ، ولما لم يجد لكلامه قبولاً لدى الرسـول ﷺ خاطبه قائـلا : « والله لأملأنها عليك خيلاً جردا ، ورجالاً مردا ، ولأربطـن بكل نخلة فرسـاً » فكان أن دعا عليه النبي ﷺ فمات شر ميتة .

ولكن الحمّى (أم ملدم) لم تترك زيداً ، فقد أراد الرجـوع الى قومـه ، فأقطعه النبي ﷺ أرضاً يقال لها فيـد ،وهي منزل في أصل جبـل طيىء منتصف الطريق بين مكة وبغداد(١٢) .

وحضرته الوفاة وهو قافل الى دياره في موضع في ديار بني طيىء يقال له فردة، فأنشـد :

أمرتحـل قومـي المشـارق غـدوة ... وأتـرك في بيت بفَـرْدَةَ منجـد
سقى الله مـا بين العقيـق فطابـة ... فما دون أرمام فما فوق مَنشَـد
هنـالك لو أني مـرضت لعـادني ... عوائدُ مـن لم يُشفَ منهن يجهـد
فليت اللواتي عُدنني لم يعدنني ... وليت اللواتي غبـن عني عُوَّدي

وقد خلف زيد من أبنائه من نهض بعده للقيام بما كان زيد يصبو اليه ، وهو الجهاد في سبيل الله تحت راية الاسـلام ،فقام ابنه مكنف بقتـال أهل الردة مـع سيدنا خالد بن الوليد وأنشد فيهم قائلاً :

ضلـوا وغـرهم طليحـة بالمنى كـذباً وداعي ربنـا لا يكـذب
لمـا رأونـا بالفضـاء كتائبـاً تدعو الى رب الرسـول وترغب
ولّوا فراراً والرمـاح تؤزّهم وبكل وجـه وَجّهـوا نتـرقب

وكان لابنه عروة أيضاً دور كبير في الفتوحات الاسـلامية في العـراق و بـلاد فارس ، لعل الزمن يتيح لنا فرصة نميط فيها اللثام عن جهاده و نبرز فيها مواقفه ، كما فعلنا بحياة أبيه زيد في هذه العجالة •

★ ★ ★

□ الحواشي والمصادر :

١ ـ اخرجه البخاري ومسلم •
٢ ـ المحبر لابن حبيب (ص ٢٣٣) •
٣ ـ مجلة المورد المجلد الثالث ، الجزء ٣ (ص ٢٢٨) •
٤ ـ انظر قصص العرب (٢/٢٨ ـ ٣٠ ، ٨١ ـ ٨٣) •
٥ ـ اللهى : العطايا •
٦ ـ لعل المقصود بقوله : حجج ناظر ، أي أصيب حجاج عين الناظر ، والحجاج كسراج وخراج بالتخفيف هو العظم الناتيء المستدير المحيط بالعين •
٧ ـ الخيل القبّ : جمع اقب وهو الضامر من الخيل •
٨ ـ الصّعْدة : الرمح المستوي •
٩ ـ الدلج : السير آخر الليل •
١٠ـ اذال الفرس يذيلها أهانها وأساء معاملتها •
١١ـ المنسج من الفرس بفتح الميم وكسر السين وبكسر الميم وفتح السين ـ ما بين العرف وموضع اللبد ، أو هو من الفرس بمنزلة الكاهل من الانسان ، وانظر اللسـان (نسـج) •
١٢ـ الروض المعطار للحميري (ص ٤٤٣) •

الاستيعاب لابن عبد البر النمري •
أسد الغابة لابن الأثير •
الاصابة لابن حجر العسقلاني •
الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني •
الأمالي لأبي علي القالي •
تاريخ الطبري •
جمهرة أنساب العرب لابن حزم •
حلية الفرسان لابن هذيل الأندلسي
رسالة الصاهل والشاحج للمعري •
السنن لأبي داود السجستاني •
صحيح الامام البخاري •
الطبقات الكبرى لابن سعد •
المحبر لابن حبيب البغدادي
المعارف لابن قتيبة •
معجم البلدان لياقوت الحموي •

★ ★ ★